مساهمات علمائنا الأوائل في حقل الدراسات السامية استطلاع وتحليل في ضوء المنهج التاريخي المقارن

د. عبدالحميد الأقطش

قسم اللغة العربية ، جامعة اليرموك ، إربد

تاريخ تقديم البحث ١٣ / ٤ / ١٩٩٤ تاريخ قبوله للنشر ١٨ / ٣ / ١٩٩٥

ملخص

يناقش هذا البحث المساهمات التي اضطلع بها أئمة العربية القدامى في موضوع الدرس السامي، وذلك في شقين: شق استطلاعي معرفي، يهدف الى تقديم صورة واضحة عن الكمية والكيفية التي حظيت بها المسائل السامية في الدرس العربي القديم، وشق تحليلي نقدي، يهدف إلى تقييم ما خلفه لنا أولئك العلماء من مساهمات في هذا الحقل من الدراسات اللغوية، ذات الصبغة التاريخية المقارنة.

وبالإجمال فإن مساهمات العرب القدامى في هذا الحقل كانت ضئيلة من حيث الكم، وبدائية من حيث الكيف، ولكن تلك المساهمات تظل نافعة جداً في فهم المسيرة التطورية للدرس اللغوي العربي، وخصوصاً في مجال المرجعية السامية المقارنة.

ABESTRACT

The contributions of the National Arab Grammarians in the Semitic studies field

This paper disucussed the item of national Arab grammarians Contributions in the field of Semiticss as follows:-

A- Collecting their data from the original sources with classifying them according to quality and quantity.

B- To analyse the data from modern linguistic point of view.

C- As A conclusion, we can say that the Semitic knowledge of the ancient Arab grammarians was quite primitive, simple, and cannot be trusted as a a scientific truth. But it can be useful to be taken as a theme not literally. Moreover it can help us build a good view a about the historical lingustic heritage by Arab grammarions.

في القرابة التاريخية بين اللغات

اللغويات التاريخية من الموضوعات الحيوية، التي تجتذب في وقتنا الحاضر اهتمام العلماء، وتستثير هممهم، وتقدم لهم مادة خصبة للحوار والجدال. وأحياناً للمناكفة والخصام، ولم تعرف هذه اللغويات من حيث هي نظرية من نظريات البحث في اللغات إلا حديثاً، بأُخرة العقود الخاصة بالقرن الثامن عشر. وقد نجمت في البداية كعلم ثانوي عن علم البحث في النصوص القديمة، والأثريات والعاديات التي تركتها الأقوام السابقة، وذلك إثر اكتشاف العلماء الأوروبيين وجود صلات قرابة بارزة وغير منكورة، بين لغاتهم في القارة الأوروبية، ولغات الهنود في القارة الآسيوية، فخفّوا لبيانها، ومن بعد توسع العلم وتوطدت أركانه، وغدا فرعاً مهماً من أفرع الدراسات اللغوية المعاصرة(١). وأهم العاديات القديمة التي حظيت بالعناية والبحث كانت نصوص السنسكريتية الهندية، ونصوص الڤيدا الإيرانية، والنصوص الأدبية الكلاسيكية من مخلفات يونان وروما قبل الميلاد. وشاع في وسم هذا النوع من الدرس اللغوي مصطلح Philology «فيلولوجي» علم النصوص القديمة.

وثمة موضوعان رئيسيان اتجهت إليهما الأبحاث التطورية التاريخية التي حررها أولئك الفيلولوجيون الأوائل، فأما أحدهما فكان موجهاً وجهة تاريخية ميتافيزيقية تهدف إلى فهم حلقات التطور النظري للظاهرة اللغوية، في مسائل مثل: نشأة اللغة، وطفولتها، ونموها، وتروم الوصول الى اللغة الأقدم التي خرجت عنها كل اللغات، أو الى اللغة التي تحدث بها آدم في جنة عدن(٢). ولا شك أن الأبحاث في هذا الجانب مغرية لفضول العقل البشري، لأنها جزء من الأسئلة العامة التي يطرحها الذهن لفهم الأشياء من حوله، ولكنها أدخل في علوم الأساطير الغيبية منها في علم الألسنية. ولغويات القرن العشرين لم تعد تحفل بالبحث في مسائل من هذا القبيل، وهجرتها إلى البحث في نظام اللغة نفسها، في مظاهرها الحسية المتعلقة: بالأصوات والمباني والتراكيب(٣).

وأما ثاني موضوعات علم فيلولوجيا القرن الماضي، فكان موجهاً وجهة تاريخية عملية، تهدف إلى استنتاج علاقات تاريخية معينة، خصوصاً في مجال تصنيف اللغات، ومجال التغيرات التي مرت بها اللغات عبر الزمن. وأكثر العلماء الذين لهم مساهمات واضحة هنا هم الألمان أمثال: ياكوب جريم Jakob Grimm ت١٨٦٣م، وفرانزبوب، Franz Bopp ت١٨٦٧م، وأوجست شلايشر، August Schleichar ت١٨٩٥م، وكارل برجمان Karl Brugmann ت١٩١٩م.

وللعلماء اليوم منهجان في توزيع اللغات(٤)، وفق نظرية الأنساب اللغوية (Genealogisch)، أو الأنماط اللغوية (typologisch). والنظرية الأولى أكثر أهمية من الثانية، وعليها يُعوّل أكثر العلماء. ومن معتاد التوزيع فيها أن تُفرد اللغات على أفرع متشابكة كتشابك أفرع الشجرة، وأحياناً قليلة ربما أُفردت اللغات على دوائر متداخلة كتداخل الأمواج المائية. ومظهر الشجرة هو الأكثر رواجاً، ويكاد حالياً يكون هو الشائع، والمعترف به بين الدارسين.

وليس ثمة معتاد شكلي في توزيع اللغات وفق نظرية الأنماط، وجوهرها لا يسمح بذلك أصلاً، من حيث إنها تستند في الرؤية لا إلى الصلات القرابية بين اللغات، وإنما إلى ما بداخل اللغات ذاتها من علامات تركيبية بارزة، ونظرية الأنماط هذه اقترحها الألماني شليجل Schlegel عام ١٨١٨م. وهو يرى أن اللغات كلها يمكن أن تتوزع على الأنماط التركيبية الثلاثة الآتية: عازلة (Isollierenden)

وإلصاقية (Affigierenden) ومتصرفة (Flektierenden). وبحسب هذه النظرية يكون موقع العربية ومعها أخواتها السامية، ضمن الفئة الثالثة المتصرفة، شأن اليونانية واللاتينية، مع الجزم بأنها تدخل كذلك ضمن الفئتين الأوليين، وأما موقعية العربية، بحسب النظرية الأولى (نظرية الأنساب) فهو مهم في موضوع هذه الدراسة، ولذا نتركه قليلاً، ونتوقف إلى التقسيم التقليدي الذي عرفته البشرية أولاً، وظل متوارثاً فيها إلى أن محته أفكار لغويي القرن الثامن عشر وما تلاه.

فهناك عند اليهود ثلاثة إخوة أسسوا الإنسانية الجديدة التي نجت بعد الطوفان. تفرقوا في البلاد فتبلبلت ألسنتهم، وتنوعت أعراقهم البشرية، ومن قبل كانت الأرض كلها لساناً واحداً وشعباً واحداً، وحين ابتدأوا العمل بشي الطين، وصنع المدن، نزل عليهم الرب وقال «والآن لا يمتنع عليهم كل ما يَنْووْن أن يعملوه، هلمّ ننزل ونُبلبل لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض، فبددهم على وجه كل الأرض»[٥] والإخوة الثلاثة هم بزعم التوراة: سام وصار أباً للساميين، وحام وصار أباً للحاميين، ويافث وصار أباً للإيرانيين، وبحسب رواية التوراة يمكن تقريب مواطن السكنى لهؤلاء الإخوة المتقاسمين، بحيث يكون الساميون في العراق والشام وجزيرة العرب، ويكون الحاميون على ضفاف وادي النيل من مصر الى الحبشة، ويكون نسل يافث في مناطق الفرس والرومان واليونان.

ولا يخفى أن مثل هذا الأطلس الجغرافي للبشرية، يجعل العالم محصوراً فقط في حوض صغير جداً من مساحة الكرة الأرضية، هو حوض الشرق الأوسط. أو حوض ملتقى رؤوس القارات الثلاث (آسيا وأوروبا وأفريقيا)، وتبقى الأجزاء الأخرى من مساحة الأرض غير مشمولة بالتقسيم، كما لو كانت غير معمورة بالناس.

وقد يمكن أن يقال بأن التقسيم التوراتي مفصل أساساً على قدر الأقوام الذين كانوا معروفين لليهود آنذاك، ولو علموا أقواماً آخرين لتوسعوا في الأنساب، وفي الأماكن. وقد يكون هذا الزعم راجحاً حين نعرف أن الهنود القدماء قد قسموا الإنسانية الباقية بعد الطوفان أيضاً إلى ثلاثة أجناس[٦]، وهم الذين كانوا يحيطون بعالمهم: (الساميون والطورانيون والإيرانيون) فأدخلوا شعوب القفص وما وراء سيحون وجيحون بدل الأفارقة (الحاميين).

وعلى أية حال فإن هذا التوزيع الثلاثي للشعوب، قد فرغ من محتواه اليوم، وصار مجرد حلقة من حلقات تاريخ العلم في الموضوع دون زيادة، ولذا فليس لنا أن نطيل الوقوف عنده، ولنا أن نعاود ربط الكلام بتقسيم الشعوب وفق نظرية الأنساب، ونتوقف منها إلى توزيع الشعوب في منطقة الشرق الأدنى القديم: فهي التي لها علاقة بموضوع هذا البحث.

وقد لاحظ علماء المشرقيات في القرن الماضي وجود قرابات مشتركة: اجتماعية، وفكرية، ولغوية، وأيضاً انثروبولوجية بين المجموعات البشرية التي استوطنت هذه المنطقة منذ أقدم عصورها المعروفة، مما أكد لهم، أنها جميعاً لا بد متوارثة من نسالة واحدة، سابقة عليها جميعاً، ومن بعد عرض لتلك النسالة انقسام وتشعب، وظهرت فيها أمم ولغات ولهجات، وجرى عرف العلماء في وسم اللغة الأولى التي تكلم بها هؤلاء الأقوام بلقب «السامية الأم»، مع تأكيدهم الصريح بأن تلك الغة الأم ليست أكثر من تصور ذهني تستدعيه معطيات التطور اللغوي، ولا من سبيل إلى إعادة البناء الكامل لها ولو بالتقريب[٧]. وكان اللغوي الألماني شلوتزر Schlözer عام ١٧٨١م هو أول من وقع على هذا الاسم،

التقطة من التوراة من سفر أنساب الشعوب، ورفضه لغويون آخرون لأنه اسم لا يقوم أصلاً على أساس لغوي، فاقترح بعضهم اسم «اللغات السامية الحامية» وبعضهم اقترح اسم «اللغات الأفرو-آسيوية»، وهناك من اقترح اسم «اللغات الجزرية» وهذا المصطلح الأخير موجود عند العراقيين[٨]. ولكن الشهرة باقية مع التسمية الأولى، وهي بعد اصطلاح ولا مشاحة في الاصطلاح.

وفي البداية كان لقب (سامية) يطلق على أربع فصائل لغوية هي: الآرامية والعبرية والعربية والحبشية، وهي اللغات التي كان لها وجودها الحي على ألسنة الناس. وبعد سلسلة الاكتشافات الموفقة عن اللغات السامية المنقرضة، وعن اللهجات السامية الباقية، اتضحت صورة الساميات، على الوجه التالي[٩].

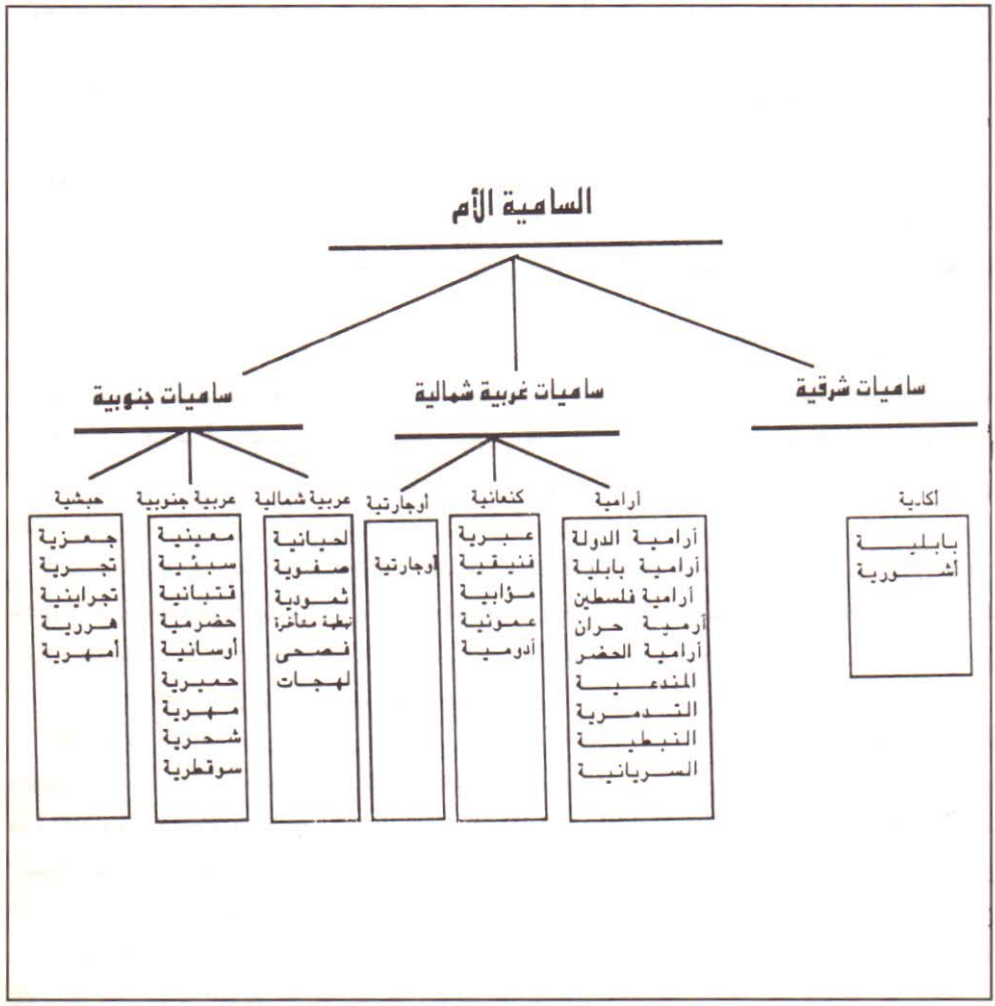

جميع السلالات اللغوية في الشجرة أعلاه وجدت في مساحة بعينها في الشرق الأدنى، وفي مناطق متقاربة غير مفصولة عن بعضها، فالساميات الشرقية في العراق، والساميات الشمالية الغربية في العراق وسوريا وفلسطين، والساميات الجنوبية في اليمن والحبشة، فالتقارب المكاني بينها واضح، والتقارب اللغوي أكثر وضوحاً، ويمكن معرفته بمراجعة الأبحاث المتخصصة بشأنه، فأما في هذه الدراسة فيكفي الإشارة إلى ملامح كبرى، متعلقة بالنظم اللغوية الأساسية (الحركات، الصوامت، الجذور، الجمل، المفردات).

في مجال الحركات: تشترك اللغات السامية كلها في وجود ثلاث حركات أساسية فيها. وهذه الحركات قد تكون قصيرة أو طويلة، ولكنها في الحالتين تلعب الدور الرئيسي في تصريف المفردات السامية، وفي تعيين خاناتها الصرفية. فهي - بخلاف ما هو الحال في اللغات الهندوأوروبية مثلاً - لها خاصية التغيير في نوعها، وفي موقعها بالنسبة لصوامت المادة التي تتصرف بها (كَتَبَ - كاتَبَ - كُتِبَ).

في مجال الصوامت: هناك ظاهرة الوجود البارز والمشترك لأصوات الأطباق (ص ط ق) وأصوات الحلق وخصوصاً (ع ح). ولنطق هذه الصوامت في اللغات السامية كيفية مختلفة إلى حد كبير عن نطقها في لغات أخرى، وبعضها قاصر عليها مثل العين والحاء.

في مجال الاشتقاق: هناك ظاهرة الاعتماد الكبير على التوليد من جذر ثلاثي الصوامت، مع آلية ثابتة، وذات نظام تكاثري، يعتمد على الحركة الانفجارية الداخلية بين صوامت الجذر نفسه. ويتضح ذلك جلياً في عدد الكلمات المتكونة من الجذور المخصبة، غير الصلدة. فثمة بعض المواد الجذور تسمح بتوليد عدد من الصيغ أكثر مما تولده مواد أخرى، ومن ذلك أن مسرد الكلمات العربية من الجذر (علم) يزيد في معجم اللسان عن المائة كلمة. وغير خاف أن هذه السمة تعد ميزة حسنة في اللغات السامية، فهي لا تجعل الناطقين بها يكابدون كغيرهم عند احتضان الكلمات الأعجمية، أو سواها من المصطلحات التي تطرأ في تاريخ المعرفة البشرية، من حيث إن الطبيعة الاشتقاقية لا تسمح في جوهرها بتوليد كلمات شاذة صرفياً، على حين تسمح بذلك الطرائق الأخرى المعهودة في اللغات ذات الطبيعة التركيبية أو النحتية، ولا براح أن الأذن العربية تحس بثقل عندما تتعاطى مصطلحات مثل: أفروآسيوية، وهندوأوروبية. واللاسلكي، والرأسمالي. وميكرفون، وتلفزيون، وسواها من الكلمات المتولدة بغير طريقة الاشتقاق.

في مجال النحو: هناك التمييز بين نمطين من الجمل: اسمية وفعلية. والاسمية تقوم على علاقة التضام بين مسند ومسند إليه، دون رابطة لفظية بينهما من فعل مساعد أو غيره، كما هو في بعض اللغات الهندية الأوروبية. والجملة الفعلية لها خاصية التعامل مع صيغتين اثنتين، إحداهما تدل على الزمن الذي تم وانقطع، والثانية تدل على الزمن المستمر وغير المنقطع.

في مجال المفردات: فاللغات السامية تكاد تتطابق تماماً في تعاملها مع المفردات الدالة على الضمائر، والأعداد، والأدوات، وأيضاً في أسامي العديد من الكائنات الحية، وغير الحية.

وهذا ما دعا العلماء إلى فرض أن الناطقين بهذه اللغات يرجعون إلى أصل واحد، وأن لغاتهم قبل أن يبلبل الله الألسنة كانت وحدة قائمة في مكان واحد. ولكنهم في تحديد ذاك الموطن الأصلي ذوو